

بسم الله الرحمن الرحيم

من طرائف القراء

بقلم د / حسن حميتو

هذه السطور عبارة عن تف مختارة ، جمعتها مما وقفت عليه في كتب التراجم وغيرها من نوادر القراء وطرائفهم ، تكشف ما تميزت به هذه الطائفة العلية من نقاء أرواح وخفة ظلال ورقة طباع وزكاء نفوس وصدق ورع . وكيف لا يكونون كذلك وهم أهل الله وخاصة وندماء كتابه، يجالسونه صباحهم ومساءهم فيكسبهم من نوره، ويفيض عليهم من أسراره.

الطريقة الأولى :

هي طريقة يتجلى فيها ورع القراء وماتة دينهم وتعظيمهم لكتاب الله وتوقيرهم لحرماته ، ما يحملهم على الاحتياط الشديد في تعاملهم مع كلام الله الكريم ، خشية أن يقعوا في اعتداء أو سوء أدب يناههم بسبه إثم أو مؤاخذه ، حتى ولو كان الأمر لا يعدو أن يكون اقتباسا من بعض آياته أو تورية بشيء من سوره في مقامات أدبية . فقد ذكر الإمام ابن حجر في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة والسيوطي في الإقتان عن الإمام محمد بن جعفر بن محمد القنائي الشريف الحسيني المصري الشافعي (ت 727 هـ) أنه لما وقعت الزلزلة بمصر سنة 702 هـ نظم بيتين في وصف الدنيا يقول فيهما :

مجازٌ حقيقتها فاعبروا ولا تعمروا هونها نهن

وما حُسنُ بيتٍ له زخرفٌ تراه إذا زلزلت لم يكن

قال : فلما نظمتهما بقي في نفسي شيء ؛ لكوني ذكرت أسماء سور من القرآن في نظمي ،
فأثيت ابن دقيق العيد فقلت : يا سيدي نظمت بيتين فاسمعهما ، فقال : قل ، فأشدتهما ،
فقال لي: لو قلت : "وما حسن كهف" لكان أحسن، فقلت له : يا سيدي أفدتني
وأقتيتني"¹ .

الطريقة الثانية :

هذه كرامة من كرامات أهل القرآن ، ذكرها الإمام ابن الجزري في ترجمة الشيخ الإمام
محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن علي بن سالم بن مكّي الشيخ تقي الدين أبو عبد الله الصائغ
المصري الشافعي (ت 725 هـ) ، وكان رحمه الله كما وصفه الإمام ابن الجزري : "إماماً
أستاذاً نقلاً ثقة عدلاً محرراً صابراً على الإقراء . . . لا يترك الإقراء لأزدحام الناس عليه ،
فتارة في الحمام ، وأخرى في الطريق ، وأواناً في العزيمة وغير ذلك" ، قال : "وكان حسن
الصوت طيب القراءة" . ثم ساق من كراماته التي تكشف صلاح حاله حكايته حين قرأ في
صلاة الفجر قوله تعالى من سورة النمل {وتفقد الطير فقال مالي أرى الهدهد} ، فجاء
هدهد حتى وقف على رأسه وهو يصلي بالناس في الحراب . قال ابن الجزري :
"وحكايته في قراءته في صلاة الفجر {وتفقد الطير فقال مالي أرى الهدهد} مشهورة ،

[725/2] .

[35/4]

1

أخبرني بها غير واحد من أصحابه ، منهم أبو بكر بن الجندي² أنه كان حاضراً ذلك اليوم³ .

الطريقة الثالثة :

ومن طرائف القراء ما كان يظهر منهم عند غضبهم على بعض من بدا منه تفريط في التحصيل ، أو تراخ في التعلم ، أو مقارفة لخطأ أثناء العرض يضيق عنه باب العذر ، فكانوا يعاقبونه بشديد النكال ، وربما كانت عقوباتهم في ذلك تكتسي طرافة وغبابة . وهذه طرفة يظهر فيها إلى جانب غرابة العقوبة من الشيخ ، عظم الرغبة من التلميذ في الأخذ عن الشيخ وتحمل مشقة العقوبة من أجل الاستمرار في القراءة عليه . ذكر الحافظ أبو العلاء الهمداني في كتاب التمهيد في معرفة التجويد بسنده إلى أبي بكر محمد بن عبد الرحيم الإصبهاني أحد الرواة عن ورش قال : سمعت علي بن القاسم بن محرز المقرئ يقول : "قال أبي : قرأت على اليزيدي بمصر ، فلحنت في سورة الزمر في حرف ، فقال : والله لا أقرأتك حتى تغتسل في البحر وتعود إلي ! فأنحدرت إلى دمياط في أربعة أيام فاغتسلت في البحر وعدت إلى الفسطاط⁴ فأقرأني⁵ .

² - هو الشيخ أبو بكر بن آيدغدي بن عبد الله الشمسي القاهري الحنفي المقرئ الشهير بابن الجندي ، شيخ مشايخ الإقراء بمصر في زمنه ، من كبار شيوخ الإمام ابن الجزري وصاحب "بستان الهداة في اختلاف الأئمة والرواة" ، قرأ على أبي حيان والجعبري وغيرهما ، ولادته سنة 699 هـ ووفاته سنة 799 هـ . ترجمته في غاية النهاية [180/1]

[157/7] .

³ - غاية النهاية [65/2] .

⁴ : مدينة بناها الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه عند فتح مصر ، وهي اليوم جزء من مدينة القاهرة عاصمة مصر .

⁵ - التمهيد ص 220 .

الطريقة الرابعة

ومن طرائفهم الدالة على روح الدعابة وخفة الظل ، ما حكى أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي البغدادي في كتابه الفصوص بسنده إلى حمزة ابن حبيب الزيات أحد القراء السبعة قال : كان الأعمش⁶ يقرئ الناس في مسجد بني أسد بالكوفة ، وكان مولى لهم ، وكان أبو حصين إمام المسجد وهم من أنفسهم⁷ ، فأف أن يقرأ على الأعمش لأنه من أنفسهم والأعمش من مواليهم ، فكان يتسمع إقراءه ، ويقرأ به في الصلاة ، ففطن له الأعمش ، فقال يوماً لبعض من يقرأ عليه : أنت تقرأ عليّ غداً قبل الصبح : "والصافات" ، فإذا مررت بـ"الحوت" فاهمز الواو من "الحوت" إذا قرأته ، فإني أغفل عنك ، ففعل القارئ ذلك فلما أقيمت الصلاة قرأ أبو حصين "والصافات" وهمز "الحوت" ، فلما أخذ الأعمش مجلسه ، قال لأصحابه : كسر اليوم ضلع من أضلاع الحوت ، فسمعه أبو حصين ، فرماه بألواح كانت بيده فشجه بها . قال حمزة : فوقع يومئذ بين العرب والموالي ضرب كثير وقتال شديد⁸ .

الطريقة الخامسة

لا جدال في أن أجدد الناس بوصف الولاية من استدرج القرآن الكريم بين جنبيه ، وكان وقافاً عند حدوده ، غيرَ غال فيه ولا جاف عنه ، فهو الذي يستحق أن يوصف بحق بأنه

⁶ - هو سليمان بن مهران الأعمش ، أبو محمد الأسدي الكاهلي (148 هـ) ، محدث مشهور ، ينظر طبقات القراء للذهبي [1/83 87] .

⁷ - يعني ينتمي إلى قبيلة بني أسد بالنسب لا بالولاء .

⁸ [2/68 69] وروضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق [1/109 110] .

من أهل الله وخاصته . وقد عرف في تاريخ القراء جماعة ممن جمعوا إلى الإمامة في القرآن وعلومه ، والتفرغ لإقرائه وتلقينه ، الصلاح والورع والزهد في الدنيا والإقبال على أمر الآخرة ، حتى ظهرت عليهم كرامات تدل على صلاح سرائرهم ، وإشراق بواطنهم . ومن هؤلاء الإمام المقرئ ولي الله العالم العَلَم القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي أبو القاسم الضرير (ت 590 هـ) ، صاحب القصيدة السائرة المعروفة بـ "حرز الأمانى" أو بـ "الشاطبية" . روى تلميذه الإمام علم الدين السخاوي عن بعض شيوخه أنه حج سنة 580 هـ فسمع جماعة من المغاربة يقولون : "من أراد أن يصلي خلف رجل لم يعص الله قط في صغره ولا كبره فليصل خلف أبي القاسم الشاطبي"⁹ . ومن طرائف ما يروى عنه من كرامات ما ذكره ابن الجزري في ترجمته من الغاية ، قال رحمه الله : "أخبرني بعض شيوخنا الثقات عن شيوخهم ، أن الشاطبي كان يصلي الصبح بغسل بالفاضلية ، ثم يجلس للإقراء ، فكان الناس يتسابقون السرى إليه ليلاً ، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله : "من جاء أولاً فليقرأ" . ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق ، فاتفق في بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولاً ، فلما استوى الشيخ قاعداً قال : "من جاء ثانياً فليقرأ" فشرع الثاني في القراءة ، وبقي الأول لا يدري حاله ، وأخذ يتفكر ما وقع منه بعد مفارقة الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له ، ففطن أنه أجنب تلك الليلة ، ولشدة حرصه على النوبة نسي ذلك لما اتبه فبادر إلى الشيخ ، فاطلع الشيخ على ذلك ، فأشار للثاني بالقراءة ، ثم إن ذلك الرجل بادر إلى حمام جوار المدرسة فاغتسل به ، ثم رجع قبل فراغ الثاني ، والشيخ قاعد أعمى على

⁹- مختصر الفتح المواهبي في مناقب الشاطبي للقسطلاني ص 49 50 .

حاله ، فلما فرغ الثاني قال الشيخ : من جاء أولاً فليقرأ ، فقرأ " . قال ابن الجزري تعليقا على هذه الكرامة : " وهذا من أحسن ما نعلمه وقع لشيخ هذه الطائفة بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا"¹⁰ .

الطريقة السادسة : رؤيا حمزة بن حبيب الزيات .

روى الحافظ المزي بسنده إلى خلف بن هشام البزار، قال: قال لي سليم بن عيسى: دخلت على حمزة بن حبيب الزيات فوجدته يمرغ خديه في الأرض ويبكي، فقلت : أعيدك بالله ، فقال: يا هذا استعدت في ماذا ؟ فقال : رأيت البارحة في منامي كأن القيامة قد قامت، وقد دعي بقراء القرآن، فكنت فيمن حضر، فسمعت قائلاً يقول بكلام عذب: لا يدخل علي إلا من عمل القرآن . فرجعت الفهقرى، فهتف باسمي: أين حمزة بن حبيب الزيات ؟ فقلت: ليك داعي الله ليك . فبدرني ملك فقال: قل ليك اللهم ليك . فقلت كما قال لي، فأدخلني داراً، فسمعت فيها ضجيج القرآن، فوقفت أرعد، فسمعت قائلاً يقول: لا بأس عليك، ارق واقراً . فأدرت وجهي فإذا أنا بمنبر من در أبيض دفتاه من ياقوت أصفر مراقيه زبرجرد أخضر فقيل لي: ارق واقراً . فرقيت، فقيل لي: اقرأ سورة الانعام . فقرأت وأنا لا أدري على من أقرأ حتى بلغت الستين آية فلما بلغت : (وهو القاهر فوق عباده) قال لي: يا حمزة ألسنت القاهر فوق عبادي ؟ قال: فقلت: بلى . قال: صدقت، اقرأ . فقرأت حتى أتمتها، ثم قال لي: اقرأ . فقرأت " الاعراف " حتى بلغت آخرها، فأومأت بالسجود، فقال

¹⁰ - غاية النهاية [22/2 24] ومختصر الفتح المواهبي ص 53 54 .

لي: حسبك ما مضى لا تسجد يا حمزة، من أقرأك هذه القراءة ؟ فقلت: سليمان، قال: صدقت، من أقرأ سليمان ؟ قلت: يحيى . قال: صدق يحيى، على من أقرأ يحيى ؟ فقلت: على أبي عبد الرحمان السلمي . فقال: صدق أبو عبد الرحمان السلمي، من أقرأ أبا عبد الرحمان السلمي ؟ فقلت: ابن عم نبيك علي بن أبي طالب . قال: صدق علي، من أقرأ عليا ؟ قال: قلت: نبيك صلى الله عليه وسلم . قال: ومن أقرأ نبيي ؟ قال: قلت: جبريل . قال: من أقرأ جبريل قال: فسكت، فقال لي: يا حمزة، قل : أنت . قال: فقلت: ما أجسر¹¹ أن أقول أنت . قال: قل أنت . فقلت: أنت . قال: صدقت يا حمزة، وحق القرآن لأكرم من أهل القرآن ولا سيما إذا عملوا بالقرآن، يا حمزة القرآن كلامي، وما أحببت أحدا كحبي لأهل القرآن، ادن يا حمزة . فدنوت فغمس يده في الغالية ثم ضمخني بها، وقال: " ليس أفعل بك وحدك، قد فعلت ذلك بنظرائك ومن وفوقك ومن دونك ومن أقرأ القرآن كما أقرأته لم يرد به غيري، وما خبأت لك يا حمزة عندي أكثر، فأعلم أصحابك بمكاني من حيي لأهل القرآن وفعلي بهم، فهم المصطفون الأخيار، يا حمزة ، وعزتي وجلالي لا أعذب لسانا تلا القرآن بالنار، ولا قلبا وعاه، ولا أذنا سمعته، ولا عينا نظرته . فقلت: سبحانك سبحانك أبي رب ! فقال: يا حمزة أين نظار المصاحف ؟ فقلت: يا رب فحفاظهم . قال: لا، ولكني أحفظه لهم حتى يوم القيامة، فإذا أتوني رفعت لهم بكل آية درجة . أقتلوني أن أبكي، وأتمرغ في التراب "

¹¹- في برنامج التجيبي: " ، والظاهر أنها تحريف .

وروى أبو الطيب بن غلبون بسنده إلى مجاعة بن الزبير، قال: دخلت على حمزة - يعني: ابن حبيب الزيات - وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك ؟ فقال: وكيف لا أبكي، رأيت الليلة في منامي كأنني قد عرضت على الله جل ثناؤه، فقال لي: يا حمزة اقرأ القرآن كما علمتك. فوثبت قائماً، فقال لي: اجلس، فإني أحب أهل القرآن. ثم قال لي: اقرأ. فقرأت حتى بلغت سورة " طه " فقلت: (طوى وأنا اخترتك) فقال لي: بين. فبينت فقلت: " طوى وأنا اخترتك ". ثم قرأت حتى بلغت سورة " يس " فاردت أن أعطي فقلت: (تنزيل العزيز الرحيم)، فقال لي: قل: (تنزيل العزيز الرحيم)، يا حمزة كذا قرأت، وكذا أقرأت حملة العرش، وكذا يقرأ المقرئون.

ثم دعا بسوار فسورني، فقال: هذا بقراءتك القرآن. ثم دعا بمنطقة فمنطقني فقال: هذا بصومك بالنهار. ثم دعا بتاج فتوجني، ثم قال: هذا بإقراءك الناس القرآن، يا حمزة لا تدع تنزيلاً فإني نزلته تنزيلاً. أفتلومني أن أبكي ؟ !¹².

قال السخاوي في جمال القراء: "وقد حدثني بها الشيخ الإمام أبو القاسم الشاطبي رحمه الله بقراءتي عليه، وحدثني بها غيره، وهي مشهورة"¹³.

الطريقة السابعة:

ومما يرتبط بنفس الآية المتقدمة في رؤيا حمزة بن حبيب - وهي قوله تعالى في سورة طه: {وأنا اخترتك} - قصة طريقة أخرى وقعت للشيخ الحافظ أبي شعيب الدكالي الصديقي

¹²- تهذيب الكمال للمزي [332 319/7] وبرنامج التجيبي ص 30 32 .
¹³ . 571

مع شيخه محمد بن المعاشي ، حين كان يقرأ عليه بالسبع أيام الطلب ، فلما وصل الآية السالفة الذكر قرأها {وأنا اخترناك} مخففا النون من {أنا} على لفظ المتكلم مسندا الفعل بعدها إلى ضمير الجماعة ، فركب بذلك بين قراءة الجماعة {وأنا اخترتك} وبين قراءة حمزة {وأنا اخترناك} ، فلما سمع منه الشيخ ذلك ضربه بلوح من خشب¹⁴ فأدمى وجهه ، وقال له : لو قرأت العربية لما وقع هذا منك . وحين اطلع عمه¹⁵ الذي كان يكفله منذ صغره بعد أن مات أبوه قال للشيخ : لو قتلته على القرآن لا أؤخذك . يقول الأستاذ عبد الرحمن الدكالي ابن الشيخ أبي شعيب : وقد حكى لي والدي رحمه الله أنه فرّ ذات يوم من أستاذه الذي ضربه بلوح من خشب ، وكانت آثار ذلك اللوح لا تزال تحت حاجبه الأيسر حتى فارق الحياة . . . وذهب إلى دوار¹⁶ بجانب دوار "الصدقات"¹⁷ يقال له : دوار "الزرك" ، فوجد نسخة من الألفية ، ألفية ابن مالك ، فحفظها في مدة غيابه التي كانت عشرة أيام ، ولما رجع إلى مقره ، تسلل حتى اتصل بوالدته رحمها الله وأعطها نسخة الألفية ، وقال لها : اذهبي بها إلى عمي وقولي له : إذا أنا أملتتها عليه من حفطي هل تكون لي شفيعا عنده حتى لا يضربني ، فذهبت أمه عند العم . الذي كان مهاجا . وقالت له : إن ولدي جاء ليعرض عليك هذا الكتاب الذي حفظه ، فهل تسامحه ؟ فقال : نعم ، فحضر أبو شعيب أمامه وأملى عليه ألفية ابن مالك ولم يتلعثم في بيت واحد منها ، فقال له عمه : لا بأس ، لكن إن عدت مرة أخرى إلى الهرب زجرتك .

¹⁴ - وهو اللوح الخشبي الذي جرت عادة المغاربة بحفظ القرآن الكريم وما يرتبط به من علوم ومتون فيه . ويقولون : لا يحفظ إلا في اللوح .

¹⁵ - هو الشيخ محمد بن عبد العزيز الصديكي ، وكان من أهل العلم والصلاح ، وهم من شيوخ أبي شعيب ف

¹⁶ - يراد به في عرف أهل المغرب القرية الصغيرة .

¹⁷ - وهو القرية التي هي أصل الشيخ أبي شعيب واشتهر بالنسبة إليها فيقال له : "الصديكي" بالكاف المعقودة ، وهي من قرى منطقة دكالة بوسط المغرب ، تتبع اليوم إداريا لمدينة الجديدة .

وهكذا ما كاد الشيخ أبو شعيب يتم الثانية عشرة من عمره حتى حفظ القرآن بالقراءات السبع و متن الشاطبية في القراءات وحفظ مختصر خليل في فقه المذهب المالكي وألفية ابن مالك وتحفة ابن عاصم وتوضيح ابن هشام والمرشد المعين لابن عاشر ورسالة ابن أبي زيد وتلخيص المفتاح والمعلقات السبع وكثيرا من الشعر الجاهلي¹⁸ .

الطريقة الثامنة

شهد رجل عند القاضي سوار بن عبد الله، فقال: ما صناعتك؟ فقال: أنا مؤذّب. فقال القاضي: إني لا أجزى شهادتك، فقال: ولم؟ قال: لأنك تأخذ على القرآن أجرا. فقال الرجل: وأنت تأخذ على القضاء أجرا. فقال: إني أكرهت على القضاء، فقال له: أكرهت على القضاء فهل أكرهت على أخذ الدراهم؟ فقال له القاضي: هلم شهادتك فأجازها¹⁹ .

¹⁸ - شيخ الإسلام أبو شعيب الدكالي الصديقي وجهوده في العلم والإصلاح والوطنية للدكتور محمد رياض ص 101 103 .
¹⁹ - ينظر المعيار المعرب للونشريسي (252/2 253).